صلاح الدين الأيوبي وتأسيس الدولة الأيوبية

طالب الدكتوراه: باسل مطانس كاسوحة كلية الآداب والعلوم الإنسانية– جامعة تشرين

الدكتورة المشرفة: أ. د. م. شيرين حمودي

الدكتورة المشرفة المشاركة: أ. د. م. وفاء صارم

الملخص باللغة العربية

لقد تعلم صلاح الدين الأيوبي طرائق الخير وفعل المعروف والاجتهاد في أمور الجهاد من سيده نور الدين محمود، حتى تجهز للمسير مع عمهِ أسد الدين شيركوه إلى مصر للقضاء على الخطر الصليبي ولإنهاء الخلافة الفاطمية وضم مصر للخلافة العباسية بأمرةِ سيده نور الدين محمود.

تسلم صلاح الدين الأيوبي منصب الوزارة في مصر بعد وفاة عمهِ أسد الدين محمود، واستطاع التغلب على كافة الصعاب التي واجهتهِ من بقايا الفاطميين وأنصارهم الى الجند السودانيين والأمراء النورية وحتى سيده نور الدين محمود، الذي انتهى معهُ الصراع بوفاة سيده نور الدين محمود.

ليبدأ صلاح الدين الأيوبي بتأسيس دولتهِ، مدركاً من اللحظات الأولى لسيطرته على مصر أن أي مواجهة قادمة مع الصليبين لا تنجح إلا بتوحيد مصر والشام وحلب ثم العمل على التحصينات، ومن خلال هذا التوحيد استطاع فيما بعد من تحرير بيت المقدس من الصليبين، وأن يكتب بداية النهاية للوجود الصليبي في بلاد الشام.

الكلمات المفتاحية: صلاح الدين، الأيوبيين، الزنكيين، الخلافة العباسة، الخلافة الفاطمية، نور الدين محمود، مصر، دمشق، حلب.

Salah al-Din al-Ayyubi and the establishment of the Ayyubid state

The summary is in English

Salah al-Din al-Ayyubi learned the ways of goodness, doing good, and diligence in matters of jihad from his master, Nur al-Din Mahmoud, until he prepared to march with his uncle, Asad al-Din Shirkuh, to Egypt to eliminate the Crusader danger, end the Fatimid Caliphate, and annex Egypt to the Abbasid caliphate under the command of his master, Nur al-Din Mahmoud.

Salah al-Din al-Ayyubi learned the ways of goodness, doing good, and diligence in matters of jihad from his master, Nur al-Din Mahmoud, until he prepared to march with his uncle, Asad al-Din Shirkuh, to Egypt to eliminate the Crusader danger, end the Fatimid Caliphate, and annex Egypt to the Abbasid caliphate under the command of his master, Nur al-Din Mahmoud.

So that Salah al-Din al-Ayyubi began to establish his state, realizing from the first moments of his control over Egypt that any upcoming confrontation with the Crusaders would only succeed by uniting Egypt, the Levant and Aleppo and then working on the fortifications, and through this unification he was later able to liberate Jerusalem from the Crusaders, and to write the beginning of the end The Crusader presence in the Levant.

Keywords: Salah al-Din, the Ayyubids, the Zangids, the Abbasid Caliphate, the Fatimid Caliphate, Nur al-Din Mahmoud, Egypt, Damascus, Aleppo.

مقدمة:

يأتي هذا البحث لإظهار الدور الأساسي للأيوبيين ولصلاح الدين في تنفيذ أوامر سيدهم نور الدين محمود، في ظل الدولة الزنكية ودورهم الفعال في فتح دمشق وضمها لدولة نور الدين محمود، ثم قيامهم بتنفيذ أوامر سيدهم نور الدين محمود بالتوجه إلى مصر وحمايتها من الخطر الصليبي وإنهاء الخلافة الفاطمية، وعن مطامح صلاح الدين بتأسيس الدولة الأيوبية والي أدت إلى الجفوة بينهُ وبين سيده نور الدين محمود ولم ينتهي ذلك الا بوفاة الأخير، وهنا بدأت أركان الدولة الأيوبية تظهر لتمتد من مصر وتتوحد مع الشام وحلب في جبهة عربية إسلامية واحدة لمواجهة الخطر الصليبي واستكمالاً لمشروع نور الدين محمود، وذلك بفضل جهود وحنكة صلاح الدين السياسية والعسكرية، ليحقق الانتصار الأكبر فيما بعد بتحرير بيت المقدس من الخطر الصليبي.

مشكلة البحث وأهميتهُ والجديد فيه:

يطرح هذا البحث إشكاليات عدة، من أهمها: ما هي البيئة التي ولدَ والقيم التي تربى فيها صلاح الدين الأيوبي في ظل سيده نور الدين محمود؟ ما مدى طاعة صلاح الدين لسيده في تنفيذ أوامره؟ ما هو سبب الجفوة بين صلاح الدين وسيده نور الدين محمود؟ ما هي أسباب صلاح الدين في تأسيس دولتهِ؟ ما هو هدف صلاح الدين في توحيد مصر والشام وحلب في جبهة عربية إسلامية واحدة؟ كيف استطاع صلاح الدين من تنفيذ مشروع سيدهِ بتحرير بيت المقدس؟

وتكمن أهمية هذا البحث في كونهِ يقدم مادة علمية جديدة عن أهم وأخطر فترة عاشتها الأمة العربية الإسلامية من انقسام ومن مواجهة للخطر الصليبي، ويسلط الضوء على الشخصية التاريخية الأبرز وهي صلاح الدين الأيوبي ودورها الفعال.

أهداف البحث:

إثبات دور صلاح الدين الأيوبي المؤسس الحقيقي للدولة الأيوبية في توحيد الجبهة الداخلية مصر والشام وحلب في دولة واحدة وجبهة واحدة متكاملة الإمكانيات البشرية والاقتصادية والسياسية والعسكرية في مواجهة الخطر الصليبي.

فرضيات البحث وحدودهِ:

حدود البحث تشمل منطقة المشرق العربي الاسلامي عامةً، ومصر خاصة فهي الركز البشري الذي انطلق منهُ صلاح الدين، والشام فهي الركز السياسي، وحلب فهي الركز الاقتصادي، والحجاز فهي الركز الديني ليجمع بينهم بدولة واحدة قوية مترامية الأطراف.

الإطار النظري والدراسات السابقة:

لقد سبق التطرق لهذا الموضوع من قبل عدد من الباحثين في كتب المصادر والمراجع التاريخية ودراسات تتحدث عن الدولة الفاطمية والزنكية والأيوبية، وتمت العودة إلى تلك الكتب للاستفادة من المعلومات والأفكار التي تحتويها والاضافة عليها والتعمق أكثر بدراسة تفاصيلها، ومنها:

1- ابن أيبك الدواداري (أبو بكر بن عبد الله، ت 736هـ / 1336م): كنز الدرر وجامع الغرر _الدر المطلوب في أخبار بني أيوب_، تح: سعيد عاشور، 8 جزء، ج 6، القاهرة، المعهد الألماني للآثار الإسلامية، 1972م.

2- ابن شداد (بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع، ت 632هـ / 1235م): النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، تح: جمال الدين الشيال، القاهرة، مطبعة الخانجى، ط4، 1996م.

3- أبو شامة (عبد الحمن بن إسماعيل، ت 665هـ / 1267م): الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تح: محمد حلمى محمد أحمد، مر: محمد مصطفى زيادة، 2 جزء، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، ط2، 1998م.

أولاً– صلاح الدين الأيوبي:

ولدَ يوسف صلاح الدين سنة (532هـ / 1138م) بقلعة تكريت[1] الواقعة على الضفة اليمنى لنهر دجلة في نفس الليلة التي غادرت فيها الأسرة الأيوبية تلك البلدة، وتوجه أبوه نجم الدين أيوب وعمه أسد الدين شيركوه إلى عماد الدين زنكى في الموصل[2]، حيث دخلا في خدمتهِ، وشاركا في حروبه الجهادية، ثم صار نجم الدين أيوب حاكماً على بعلبك[3] التي منحها إياه عماد الدين زنكى كإقطاع سنة (534هـ / 1140م)[4]، وعلى الرغم من اهتمام المصادر العربية الإسلامية المعاصرة لصلاح الدين بأخباره وأعماله إلا أنها لا تشير إلى شيء من التفصيل عن حياة صلاح الدين

1– تكريت: بلدة مشهورة بين بغداد والموصل، لها قلعة حصينة في طرفها الأعلى راكبة على دجلة وهي غربي دجلة وكان أول من بنى هذه القلعة سابور بن أزدشير. الحموي (ياقوت بن عبد الله، ت 626هـ / 1229م): معجم البلدان، 5 أجزاء، بيروت، دار صادر، 1977م، ج2، ص38.

2– الموصل: في الجانب الغربي من دجلة وسميت بهذا الاسم لأنها وصلت بين الفرات ودجلة، وشرب أهلها من ماء دجلة وفي أعلى البلدة قلعة عظيمة قد رص بناؤها رصاً وفي المدينة مدارس للعلم. الحميري (محمد بن عبد الله بن عبد المنعم ت 900هـ / 1495م): الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، بيروت، مكتبة لبنان، ط2، 1984م، ص563.

3– بعلبك: مدينة قديمة فيها أبنية عجيبة، بينها وبين دمشق ثلاثة أيام. الحموي: معجم البلدان، ج2، ص453.

4– ابن شداد (بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع، ت 632هـ / 1235م): النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، تح: جمال الدين الشيال، القاهرة، مطبعة الخانجى، ط4، 1996م، ص31؛ عنان (محمد عبد الله): تراجم إسلامية شرقية وأندلسية، القاهرة، مكتبة الخانجى، ط2، 1970م، ص52.

أثناء إقامته في بعلبك، سوى أنهُ نشأ في كنف أبيه وتلقى تربية أبناء الطبقة الحاكمة فدرسَ القرآن الكريم والحديث والفقه والنحو والتاريخ واللغة والآدب، وتعلم الفروسية والصيد وغيرها، ثم لحق صلاح الدين بعمه أسد الدين شيركوه في حلب[1]، وكان عمرهُ أربعة عشر سنة حينها، وكانا أثنائها في خدمة نور الدين[2] محمود[3].

بعد أن ضم نور الدين دمشق استدعى نجم الدين أيوب، ومنحه إقطاعاً إكراماً لجهوده مع أخيه أسد الدين شيركوه في فتح دمشق، وجعل شمس الدين تورانشاه (550_577هـ / 1155_1180م)، الابن الأكبر لنجم الدين أيوب في شحنة دمشق ثم عين أخاه صلاح الدين في هذا المنصب سنة (551هـ / 1156م)[4]، إلا أن صلاح

1- العريني (السيد الباز): مصر في عصر الأيوبيين، القاهرة، مطبعة الكيلاني الصغير، 1960م، ص23_24؛ عنان: تراجم إسلامية شرقية وأندلسية، ص52؛ المومني (سعد محمد): القلاع الإسلامية في الأردن، عمان، دار البشير، ط2، 2008م، ص37؛ ليونز (ملكوم كامرون)، جاكسون (و. د. أ. ب): صلاح الدين، تر: علي ماضي، تح: نقولا زيادة، فهمي سعد، بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع، 1988م، ص15_16.

2- نور الدين: هو محمود بن زنكي الملقب بالملك العادل ملك الشام وديار بكر والجزيرة ومصر، ولدَ في حلب سنة (511هـ / 1118م)، واهتم بالجهاد ضد الصليبيين، نشر العدل في بلاد الشام، ومنح عرب البادية إقطاعات لئلا يتعرضون للحجاج واهتم بالعمارة العسكرية والمدنية. أبو الفدا (إسماعيل بن علي، ت 732هـ / 1332م): التبر المسبوك في تواريخ الملوك، تح: محمد زينهم محمد عزب، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، 1995م، ص63.

3- هاملتون (السير. آ. رجب): صلاح الدين الأيوبي، تر: يوسف ايبش، بيروت، بيسان للنشر والإعلام، ط2، 1996م، ص118.

4- أبو شامة (عبد الرحمن إسماعيل بن عثمان، ت 665هـ / 1267م): الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تح: محمد حلمى محمد أحمد، مر: محمد مصطفى زيادة، 2 جزء، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، ط2، 1998م، ج1، ق2،

الدين تخلى عن منصبهِ، بسبب ما وقع بينه وبين صاحب الديوان من خلاف، فرجع إلى حلب مرة أخرى، وتقرب منه نور الدين محمود وشملهُ بعنايته لمهارته في لعب الكرة التي يحب نور الدين لعبها، فكان لا يفارقه[1]، ثم تولى صلاح الدين شحنة دمشق مرة أخرى في سنة (556هـ / 1160م)، فأظهر حسن سياستهِ وتصفه المصادر العربية الإسلامية في الاستقامة والسلوك الطيب وإتباع طريق الجهاد[2]، ويصف المؤرخ القاضي ابن خلكان صلاح الدين "وكانت مخايل السعادة عليه لائحة، ونور الدين يرى له ويؤثره، ومنه تعلم صلاح الدين طرائق الخير وفعل المعروف والاجتهاد في أمور الجهاد حتى تجهز للمسير مع عمه شيركوه إلى الديار المصرية"[3].

ثانيا_ صلاح الدين في فترة الوزارة (الفاطمية _ الزنكية):

إن الأحداث التي جرت في مصر والشام في (النصف الثاني من القرن الخامس الهجري / القرن الثاني عشر الميلادي)، قد حددت مستقبل صلاح الدين، فقد كان حتى سن 25عاماً، بعيداً عن الساحة السياسية والعسكرية، في حين أن عمه أسد الدين شيركوه كان وقتها اليد اليمنى لنور الدين محمود وهو الذي دفعهُ إلى الحياة العامة (السياسية والعسكرية)، وأن صلاح الدين لم يشترك في الحروب التي خاضها عمه حتى

ص250؛ الباقوري (عبد العال): صفحات من تاريخ الحروب الصليبية – حطين طريق الانتصار، المنيا مصر، دار الهدى، ط1، 1998م، ص20.

1- العريني: مصر في عصر الأيوبيين، ص24؛ قلعجي (قدري): صلاح الدين الأيوبي، بيروت، شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، ط1، 1992م، ص158_159.

2- الحويرى (محمود): بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين، القاهرة، دار المعارف، ط1، 1992م، ص149.

3- ابن خلكان (أحمد بن محمد، ت 681هـ / 1282م): وفيات الأعيان وأنباء ابناء الزمان، تح: حسان عباس، 8 أجزاء، بيروت، دار صادر، 1968م، ج7، ص145؛ الباقوري: حطين طريق الإنتصار، ص19.

سنة (559هـ / 1164م) وهي السنة التي اختاره عمهُ للمسير معه إلى الديار المصرية[1].

بعد وفاة أسد الدين شيركوه تنازع كل من أمراء نور الدين محمود وقادة قوات أسد الدين شيركوه الموجودين ضمن الجيش في مصر على منصب الوزارة[2]، ولكن المصادر المعاصرة تؤكد أن الخليفة الفاطمي العاضد أصر على اختيار صلاح الدين لمنصب الوزارة، وربما ظناً منهُ أن صغر سنهِ سيجعلهُ عديم الخبرة فيسهل عليه استخدامه في القضاء على بقية أمراء نور الدين في مصر، وبذلك يكون الخليفة الفاطمي العاضد قد تخلص من نور الدين وشاور معاً[3].

يذكر المؤرخ ابن الأثير أن الخليفة الفاطمي العاضد ظن بتولية صلاح الدين الوزارة، فإنه مستضعف لا يستطيع مخالفة الخليفة الفاطمي، وبذلك يستطيع إخراج

1- العريني: مصر في عصر الأيوبيين، ص24_25؛ الحويرى: بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين، ص150.

2- ابن الأثير: (علي بن أحمد، ت 630هـ / 1233م): الكامل في التاريخ، تح: محمد يوسف الدقاق، 11 مجلد، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1987م، مجلد10، ص17؛ ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تح: عبد القادر طليمات، القاهرة، دار الكتب الحديثة، ص142؛ ابن تغرى بردى (جمال الدين أبي المحاسن يوسف، ت 874هـ / 1469م): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تح: محمد حسين شمس الدين، 16 جزء، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1992م، ج6، ص17_18؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص197.

3- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص17؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، ق2، ص407؛ عاشور (سعيد): الحركة الصليبية، 2 جزء، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط4، 1986م، ج2، ص545؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص198؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص44.

العسكر الشامي إلى بلادهم ليتفرد بالسلطة[1]، أما نور الدين فكتب لصلاح الدين يعنفهُ على قبولهِ منصب الوزارة دون موافقته[2]، وفي الواقع أن صلاح الدين لم يكن سهلاً كما توقعهُ الخليفة الفاطمي العاضد، فقد أثبت أنه قائداً عسكرياً وسياسياً بارعاً منذُ اللحظة الأولى لتوليهِ الوزارة في مصر، فمن أهم أعماله أنهُ حجر على الخليفة الفاطمي العاضد، ومنعهُ من كل تصرف وعمل على التقرب من قلوب الناس بتوزيع الأموال والهدايا، وذلك من أموال كان أسد الدين شيركوه قد جمعها، وبدأ في نقص إقطاع المصريين وإعطائها للشاميين الأمر الذي ساعد على تقوية نفوذه وإضعاف سلطة الخليفة الفاطمي العاضد، كما أن صلاح الدين أخضع مماليك عمهِ، وأحكم قبضته على الجند وأحسن لجميع العسكر الشامي والمصري فأحبوهُ وأطاعوهُ[3]، ومما ساهم في تقوية مركز صلاح الدين أن نور الدين محمود أمدهُ بقوة جديدة من العسكر، كانت تضم شمس الدين تورانشاه أخو صلاح الدين[4]، وبفضل ذلك كله، تمكن صلاح

1- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص17؛ ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص142.

2- أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، ق2، ص440؛ ابن كثير (إسماعيل بن عمر، ت 774هـ / 1372م): البداية والنهاية، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، 21 جزء، القاهرة، دار هجر، ط1، 1998م، ج16، ص432؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص217؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص48.

3- أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، ق2، ص408؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج5، ص235؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص48.

4- أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، ق2، ص408؛ الحويرى: بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين، ص151؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص49.

الدين من القضاء على قوة جند السودان الذين كانوا آخر سلاح اعتمد عليه الخليفة الفاطمي العاضد لاستعادة نفوذه[1].

واجهَ صلاح الدين منذ توليهِ منصب الوزارة عدة مصاعب، من مؤيدي الخلافة الفاطمية من جهة ومن الصليبيين من جهة آخرى. فكانت المؤامرة التي تزعمها جوهر المؤتمن أحد طواشية[2] القصر وهو رئيس بلاط قصر الخليفة الفاطمي العاضد وقائد الجند السودانيين، فقد استاء من صلاح الدين بعد توليه الوزارة، حيث ضيق مركز الخلافة وحاشيتهم، وثقلت وطأته على أهل القصر، فجهز مؤامرة للتخلص منهُ فأرسل رسالة للفرنج لمساعدته، فيدعوهم للقدوم إلى مصر فإذا جاؤوا وخرج صلاح الدين لقتالهم، يكون قد قبض على أتباعهِ والفرنج قضوا عليه، ولكن هذه الرسالة وقعت بيد صلاح الدين، ورفض صلاح الدين العودة لسياسة ضرغام وشاور، فأرسل إلى جوهر جماعة من أصحابه بقيادة أخيه شمس الدين تورانشاه تمكنوا من قتلهِ في أواخر سنة (564هـ / 1169م)[3]، فثار الجند السودانيين تضامناً مع مؤتمن الخلافة، ولأن

1- عاشور (سعيد): الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، القاهرة، دار النهضة العربية، 1996م، ص20.

2- الطواشي: هو الخصي وهذا المصطلح من المصطلحات التي دخلت العربية عن التركية. ابن شداد (عز الدين محمود علي بن إبراهيم، ت 684هـ / 1285م): الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تح: يحيى زكريا عبارة، 3 أجزاء، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، 1991م، ج2، ق2، ص439.

3- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص19؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، ق2، ص450_451؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص433؛ المقريزي (أحمد بن علي، ت 845هـ / 1441م): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، تح: محمد زينهم، مديحة الشرقاوي، 3

صلاح الدين عمل على إبعادهم، فتجمع أكثر من خمسين ألفاً منهم، ودارت معارك عنيفة بينهم وبين قوات صلاح الدين، في مكان يعرف بين القصرين بالقاهرة[1]، أما موقف الخليفة الفاطمي العاضد فكان مؤيداً للجند السودانيين لأمله بهم بأنهم سيخلصونه من صلاح الدين، وتم رمي العسكر الشامي بالنشاب والحجارة من أعلى قصر الخليفة الفاطمي العاضد وبموافقتهِ، لذلك قام صلاح الدين بإشعال النار في معسكراتهم، وقام تورانشاه بتهديد الخليفة الفاطمي العاضد بحرق قصره فتوقف عن دعمهم، ولما تخلى عنهم الخليفة الفاطمي العاضد هربوا إلى الصعيد[2] فلاحقهم صلاح الدين إلى أن قضى عليهم نهائياً في سنة (572هـ / 1176م)[3]، كذلك فعل صلاح الدين بحرس الخليفة الأرمن، فأشعل النار في ثكناتهم وقبض عليهم حتى لا يعطيهم الفرصة للقيام بما قام به الجند السوداني[4]، وبذلك يكون صلاح الدين قد قضى على

جزء، القاهرة، مكتبة مدبولي، ط1، 1998م، ج2، ص371؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص202_203؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص49.

1- القاهرة: قاعدة الملوك المصريين ودار ملكهم في البلاد المصرية، وقد بناها العبيديين الشيعة الذين كانوا بها، وهي مدينة كبيرة بناها جوهر الصقلي سنة (358هـ / 969م)، في عهد الخليفة الفاطمي المعز لدين الله (319_365هـ / 931_975م). الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص450.

2- الصعيد: هي أعالي بلاد مصر وكأنه الصاعد منها. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص361.

3- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص19؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، ق2، ص451_452؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص434؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج2، ص372؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص203؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص51.

4- الحويري: بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين، ص152؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص21.

القوة المؤيدة للخلافة الفاطمية، ولم يبق أمامهُ إلا كبار الملاك والإقطاعيين على الرغم من حرصهم مسايرة الأوضاع والانضمام لصلاح الدين، لكنهُ تخلص منهم ووزع إقطاعاتهم على رجال من أهل الشام[1].

لم يكد صلاح الدين ينهي مؤامرة جوهر ومشكلة السودانيين حتى ظهر الخطر الفرنجي. لقد أدت سيطرت قوات نور الدين محمود على مصر، إلى شعور الفرنج بوقوعهم بين فكي كماشة، لذلك عمل الملك عموري الأول)[2] على السعي للحصول على مساعدة من الغرب الأوربي لكنهُ أخفق، فاتجه للتحالف مع الامبراطور البيزنطي لغزو مصر واقتسامها[3]. وبالفعل أرسل الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين أسطولاً ضخماً مؤلفاً من مائة وخمسين سفينة حربية تقريباً مسلحة تسليحاً متقناً، وحوالي ستين سفينةً لنقل الخيول وأكثر من عشرة سفن لنقل المؤن والآلات الحربية، ووصل

1- الحويري: بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين، ص152؛ عاشور (سعيد): الناصر صلاح الدين، القاهرة، المؤسسة العامة المصرية للتأليف والنشر، 1965م، ص83_84؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص21.

2- عموري الأول: يعرف في المؤلفات العربية باسم أموري أيضاً، تولى مملكة بيت المقدس الصليبية سنة (557هـ / 1162م)، بعد وفاة بلدوين وبقي على مملكته حتى توفي سنة (569هـ / 1174م)، وكان في 27 من عمره عند اعتلائه العرش، وفي عهده تقدمت جيوش الفرنج من الشام نحو مصر للاستيلاء عليها في آواخر عهد الفاطميين بسبب صراع الوزراء ضرغام وشاور وانتهت باستيلاء أسد الدين شيركوه على مصر باسم نور الدين زنكي وقيام الأسرة الأيوبية. أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، ق1، ص293.

3- أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، ق2، ص256؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص205.

هذا الأسطول إلى ميناء عكا[1] في شتاء سنة (565هـ / 1169م)، لكن إبطاء الصليبيين في تجهيز قواتهم أفقد الحملة عنصر المباغتة ليأخذ صلاح الدين حذره[2]، حيث انطلق البيزنطيون نحو مصر بالسفن والصليبيون براً، لكن الأسطول البيزنطي وقف عاجزاً عن دخول دمياط[3] بسبب المآصر وهي سلاسل حديدية ممتدة في الماء تمنع دخول السفن، ولم يغادر صلاح الدين القاهرة إلى دمياط خوفاً من استغلال مؤيدي الخلافة الفاطمية ذلك وإشعال ثورة ضدهُ، لذلك أرسل إلى دمياط بن أخيه تقي الدين عمر وخاله شهاب الدين، وقد ظن صلاح الدين أن الملك عموري الأول سيقصد القاهرة عن طريق الصحراء الشرقية مثلما فعل في حملاته السابقة، لذلك أسرع في تحصين بلبيس[4] والقاهرة والإسكندرية[5]، لكنهُ توجه إلى دمياط، عندها شعر صلاح الدين

1- عكا: مدينة قديمة من ثغور الشام واسعة بينها وبين طبرية يومان وهي قاعدة مدن الافرنج بالشام. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص410.

2- الحويري: بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين، ص153.

3- دمياط: مدينة قديمة بين تنيس ومصر على زاوية بين بحر الروم الملح والنيل مخصوصة بالهواء الطيب وعمل الثياب، وهي من ثغور الإسلام. الحموي: معجم البلدان، ج2، ص472.

4- بلبيس: مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشرة فراسخ على طريق الشام، فتحت في سنة (18 أو 19هـ / 639،640م) على يد عمرو بن العاص. الحموي: معجم البلدان، ج1، ص479.

5- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص22؛ ابن شداد النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص83؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص440؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج2، ص601؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص52_53.

الإسكندرية: مدينة عظيمة من ديار مصر بناها الاسكندر بن فيلبش فنسبت اليه وهي على ساحل البحر المتوسط، والإسكندرية تعجب كل من رأها ببهجتها وحسن منظرها

بالموقف الحرج، وطلب النجدة من سيده نور الدين محمود الذي أرسل له القوات وقام بالهجوم على معاقل الصليبيين في الشام لتخفيف الضغط عن دمياط[1]، أما موقف الخليفة الفاطمي العاضد فقد وقف إلى جانب صلاح الدين وساندهُ بإرسال الثياب والأموال له بوصفه وزيرهُ[2]، أرسل صلاح الدين الإمدادات إلى دمياط عن طريق النيل، واستطاع تقي الدين وشهاب الدين من دخول مدينة دمياط، مما جعل الحصار الذي فرضه الصليبيون على المدينة غير تام[3]، إضافة إلى أن أهل دمياط استغلوا جريان المياه من الجنوب للشمال بوضع أواني فخارية بها مواد مشتعلة على سطح الماء، مما أنزل الضرر بشكل كبير بالأسطول البيزنطي، الأمر الذي جعلهُ مرغماً للابتعاد عن المدينة[4].

وارتفاع مبانيها واتقانها، واسعة طرقاتها. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص54، 56.

1- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص22؛ ابن شداد النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص83؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، ق2، ص457؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص440.

2- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد 10، ص23؛ ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص144؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، ق2، ص457؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص440؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج1، ص601؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج6، ص7؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص210.

3- المقريزي: الخطط المقريزية، ج1، ص600؛ عاشور: الحركة الصليبية، ج2، ص561.

4- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص24.

بدأت القوات البيزنطية تعاني من نقص حاد في المؤن وكادت تلك القوات تموت جوعاً، وزاد الوضع سوءاً هبوب رياح شديدة محملة بأمطار غزيرة أغرقت المعسكر الصليبي، إضافة لهجوم المسلمين لفك الحصار عن دمياط، وضغط نور الدين محمود على الصليبيين في الشام، أدى إلى انسحاب الحملة البيزنطية الصليبية إلى عسقلان[1] في (ربيع الأول سنة 565هـ / أيلول 1169م) دون تحقيق أي هدف[2].

كان لهذا الانتصار انعكاسات هامة فهو أول انتصار لصلاح الدين بعد توليه الوزارة، وقد أقنع هذا الانتصار الخلافة الفاطمية بأن صلاح الدين قادر على إدارة البلاد وحمايتها، كما أفقدتها الأمل الأخير في التخلص من صلاح الدين، لذلك أرسل الخليفة الفاطمي العاضد إلى نور الدين يطلب منهُ سحب الأتراك من القاهرة بحجة خوف الأهالي منهم فرد نور الدين محمود بأن وجودهم يخيف الفرنج[3].

بعد انتهاء صلاح الدين من الحملة الصليبية البيزنطية، أراد أن يجمع حوله أفراد أسرتهِ وعشيرتهِ، فطلبَ من سيدهِ نور الدين محمود أن يرسل إليه أباه وأقاربه ليستعين بهم في تصريف شؤون مصر، فلم يتأخر نور الدين محمود عن الاستجابة لهذا المطلب فوصلوا في (جمادى الآخرة سنة 565هـ / آذار 1170م)، بعد أن أوصىَ نور الدين محمود نجم الدين أيوب أن يأمر ابنهُ صلاح الدين بإقامة الخطبة للخليفة العباسي، وعند وصولهم عين صلاح الدين أباه على بيت المال، وأقطع إخوته وأبناء

1- عسقلان: مدينة عامرة بأيدي الروم، وهي على ساحل البحر، فتحها معاوية على صلح سنة (23هـ / 644م)، وهي مدينة حسنة ذات سورين وهي معدودة من أراضي فلسطين. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص420.

2- الحويري: بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين، ص154_155؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص24.

3- أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، ق2، ص460؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص54.

عمه بعض الأراضي[1]، وفي تلك الأثناء كان نور الدين محمود قد شدد هجماته على الصليبيين بالشام، كما فرض سيادته على الموصل سنة (566هـ / 1171م)، وقد أراد استكمال وحدة البلاد الشامية والمصرية، لبدء عمل عسكري موحد ضد الصليبيين، لذلك ركز على إنهاء العقبة في ذلك وهي الخلافة الفاطمية[2].

عمل صلاح الدين بتوجيهات سيده نور الدين محمود على القضاء على المذهب الشيعي في مصر، فأنشأ مدرسة لتدريس المذهب الشافعي، وعين قضاة شافعية في جميع أنحاء البلاد، فارتقع شأن المذهب السني، وانحسر المذهب الإسماعيلي تدريجياً، حتى اختفى في النهاية[3]، كذلك عمل على القضاء على رسوم الخلافة الفاطمية ومعالمها، فأبطل من الأذان حي على خير العمل، محمد وعلي خير البشر، ووضع يده على القصور الفاطمية، وعين على حراستها الطواشي بهاء الدين قراقوش[4] الأسدي،

1- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص23؛ ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص144؛ ابن شداد النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص85؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، ق2، ص465_466؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص442؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج6، ص7_8؛ سيمينوفا (ليديا): صلاح الدين والمماليك في مصر، تر: حسن بيومي، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، 1998م، ص48.

2- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص30؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، ق2، ص472 ،476.

3- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص32؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، ق2، ص486؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص210؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص57.

4- بهاء الدين قراقوش: أبو سعيد قراقوش بن عبد الله الأسدي، نسبة الى أسد الدين شيركوه، فقد كان من مماليكه، ثم خدم صلاح الدين، وتولى زمام القصر الفاطمي، وناب

وجرد العاضد وجميع أفراد أسرته من أموالهم وأمتعتهم، وضيق على سائر أهل القصر[1]، تابع صلاح الدين عملهُ على محو آثار الدولة الفاطمية بمختلف الوسائل الحربية والمدنية والثقافية، وأخذ بتكوين جيش قوامهُ المماليك الأسدية القدماء، وسائرهُ من الأحرار الأكراد الذين دخلوا في خدمتهِ فضلاً عن مماليك أتراك اشتراهم لنفسهِ وسماهم الصلاحية نسبة إلى اسمهِ أو الناصرية نسبة إلى لقبهِ الناصر[2]، ومع ذلك يبدو أن صلاح الدين كان متخوفاً من الإقدام على الخطوة الفاصلة بإسقاط الخلافة الفاطمية، ويفسر البعض مخاوفه من سيده نور الدين محمود أكثر من شيعة مصر، وذلك لإحساسه بتغير شعور نور الدين محمود نحوه، لذلك أراد صلاح الدين أن يبقى على الخلافة الفاطمية بوضعها الهش ليستغلها عند الحاجة كستار يحميه من سيده نور الدين محمود إذا تأزم الموقف بينهما[3].

وهكذا أخذ صلاح الدين يماطل سيده نور الدين محمود عندما طلب منهُ الأخير إسقاط الخلافة الفاطمية، لتحقيق وحدة العالم الإسلامي. وقد رد صلاح الدين على طلب سيده نور الدين معتذراً لتخوفه من قيام المصريين بثورة فهم أكثر ميلاً إلى الفاطميين.

عن صلاح الدين في بعض المناسبات وأشرف على بناء القلعة والسور وقناطر الجيزة، ولما فتحت عكا تولاها وسورها، ثم أسره الفرنج فافتك نفسه بعشرة آلاف دينار، توفي سنة (597هـ / 1201م)، وقراقوش لفظ تركي معناه العقاب الطائر. أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، ق1، ص488.

1- أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، ق2، ص488؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج2، ص367_369؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج6، ص20؛ عنان: تراجم إسلامية شرقية وأندلسية، ص56؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص211.

2- العبادي (أحمد مختار): تاريخ الأيوبيين والمماليك، بيروت، دار النهضة العربية، 1995م، ص45.

3- قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص205؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص27.

لكن نور الدين أرسل إليه إنذاراً نهائياً في صيف سنة (566هـ / 1171م) يأمرهُ بإحلال اسم الخليفة العباسي المستضيء بنور الله (565_575هـ / 1170_1179م)، بدلاً من اسم الخليفة الفاطمي العاضد في خطبة الجمعة "وألزمه ذلك إلزاماً لا فسحة فيه"[1].

أخيراً اضطر صلاح الدين إلى اتخاذ تلك الخطوة الخطيرة، فتم الدعاء في أول يوم الجمعة من سنة (567هـ / 1171م) للخليفة العباسي المستضيء بنور الله في القاهرة، وقد حدث هذا الانقلاب بكل هدوء ويذكر أن الخليفة الفاطمي العاضد كان مريضاً حينها مرضاً ميؤوساً منهُ، فأخفى الجميع عنهُ ذلك الخبر حتى توفي في يوم العاشر من محرم يوم عاشوراء[2]، ويذكر المؤرخ ابن أيبك أنه في سنة (567هـ / 1172م) توفي الخليفة واختلف في سبب وفاتهِ فمنهم من ذكر أنه مات موتاً طبيعياً، ومنهم من ذكر أن السلطان صلاح الدين ضيق عليه حتى سمم نفسه فمات[3]، يذكر

1- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص33؛ ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص156؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، ق2، ص493.

2- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص34؛ ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص156؛ ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص86؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، ق2، ص493؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج3، ص114؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج6، ص7؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص213.

3- ابن أيبك الدواداري (أبو بكر بن عبد الله، ت 736هـ / 1336م): كنز الدرر وجامع الغرر _ الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، تح: سعيد عاشور، 8 جزء، القاهرة، المعهد الألماني للآثار الإسلامية، 1972م، ج7، ص48.

المؤرخ المقريزي بأن صلاح الدين بعد ذلك نزع الفضة التي كانت بمحاريب جوامع القاهرة، والتي كانت تحمل أسماء الخلفاء الفاطميين[1].

لم يكن إنهاء الخلافة الفاطمية حدثاً خاصاً بمصر، وإنما كان حدثاً مؤثراً في تاريخ العالم الإسلامي فها هي الخلافة الفاطمية تنهار بعد قرنين من الزمان تقريباً، لتصبح الخلافة العباسية هي الوحيدة التي تدين لها غالبية المسلمين روحياً.

فلا عجب من إقامة الاحتفالات ببغداد[2] للتعبير عن النصر، حتى أن الخليفة العباسي المستضيء بنور الله بادر بإرسال الخلع إلى نور الدين محمود وصلاح الدين ومعها الأعلام والرايات السود شعار العباسيين[3].

ثالثاً_ الجفوة بين نور الدين محمود وصلاح الدين:

بدأت بوادر الجفوة تظهر بين صلاح الدين وسيده نور الدين محمود في الشام. فحتى سقوط الخلافة الفاطمية كان صلاح الدين يتولى سلطانهُ في مصر بوصفه وزيراً شرعياً للخليفة الفاطمي، فضلاً عن تنفيذ تعليمات سيده نور الدين بوصفه نائباً عنهُ وقائداً لقواته في مصر. وفي تلك الفترة كانت الخطبة على المنابر بالديار المصرية

1- المقريزي: الخطط المقريزية، ج3، ص216_217.

2- بغداد: أول من جعلها مدينة الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور بالله (95_158هـ / 714_775م)، وبغداد جنة الأرض ومدينة الروم ومجمع الرافدين ودار الخلافة العباسية وعين العراق. الحموي: معجم البلدان، ج1، ص457_461.

3- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص35؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، ق2، ص502؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص450 ،454؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص216؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص79.

للخليفة الفاطمي العاضد، وبعده للملك العادل نور الدين محمود[1]، ولكن بسقوط الخلافة الفاطمية ووفاة الخليفة الفاطمي العاضد "صفا الوقت لصلاح الدين" كما ذكر المؤرخ ابن تغرى بردى، وصار يخطب باسمه على المنابر بعد الخليفة العباسي والملك العادل نور الدين محمود[2].

تظهر هذه الجفوة حسب المصادر المعاصرة بشكل واضح عندما دعا نور الدين محمود نائبهُ في مصر صلاح الدين للسير إلى حصن الشوبك، فحاصرهُ أشد حصار وكادَ أن يسقط بين يده بعد أن طلب الصليبيون مهلة عشرة أيام لإخلاء الحصن، لكن صلاح الدين فك الحصار عنه، عندما علم بمسير نور الدين محمود إليه من دمشق لمساعدته في فتح الحصن، متخوفاً من منع نور الدين محمود له من العودة إلى مصر والقبض عليه، فبادر بالانسحاب والعودة إلى مصر متحججاً بتخوفه من انتفاض أتباع الفاطميين أثناء غيابه، فغضب نور الدين محمود من ذلك وأراد إبعاد صلاح الدين عن مصر[3]، لقد سبب هذا التصرف استياء نور الدين محمود وغضبه، مما دفع صلاح الدين إلى عقد اجتماع مع أهله وعشيرته، للتشاور فيما يجب عمله في حال هجوم نور الدين محمود على مصر، فأبدى الشبان المتحمسين من أسرة صلاح الدين بقتاله ومحاربته، لكن وقف نجم الدين أيوب والد صلاح الدين رافضاً لهذا الرأي مستعداً للانضمام لنور الدين محمود وتقبيل يده "ولو طلب مني قتلك لقتلتك، وإن هذه البلاد له

1- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص29.

2- ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج5، ص357.

3- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص35_36؛ ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص158؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، ق2، ص518_519؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص459؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج6، ص21_22؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص219؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص66.

وأنت نائبه لو أراد عزلك فهو ليس بحاجة للمجيء، يأمرك بكتاب ويعين من يريد"[1]، ثم انفرد نجم الدين أيوب بابنه صلاح الدين ونصحهُ "بتسرعهِ بجمع هذا المجلس وكشف ما بنفسهِ أمامهم فإنهم سيرسلون لنور الدين محمود لإخباره بما حدث، وعند قدومه سينضمون إليه ضدك، ثم نصحهُ أن يرسل له كتاب يظهر ولائه وطاعته لسيده نور الدين محمود"[2]، وهكذا كان نجم الدين أيوب السند الحقيقي لابنه بحكمته وخبرته وحرصه عليه في تلك المرحلة الحرجة التي تمر بها الدولة الأيوبية الفتية.

فعلى الرغم من أن القوات التي تحت يد صلاح الدين تدين له بالولاء والطاعة، إلا أن ظهور نور الدين محمود في مصر كافياً لتخلي هذه القوات عن صلاح الدين والانضمام لسيدها نور الدين محمود، وهذا ما أدركه ووعاه صلاح الدين فعلاً[3]، وتنفيذاً لإرشادات والده نجم الدين أيوب، أرسل صلاح الدين رسالة يظهر فيها ولائه

1- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص36؛ ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص158_159؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، ق2، ص519؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص459_460؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج6، ص22_23؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص218.

2- ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص158_159؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج6، ص22_23.

3- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص36؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، ق2، ص519_520.

وطاعته لسيد نور الدين محمود، إضافة للهدايا الثمينة من الحيوانات النادرة وبعض جواهر القصر الفاطمي، والأقمشة والعطور الفاطمية[1].

إلا أن نور الدين محمود استمر في شكوكهِ من سياسة صلاح الدين ومشاريعه في مصر، فأرسل له وزيره موفق الدين خالد بن القيسراني، لعمل حساب مفصل عما استولى عليه صلاح الدين من قصور الخلفاء الفاطميين[2]، الأمر الذي دفع صلاح الدين للتفكير والعمل في تحصيل مكاناً بديلاً للأسرة الأيوبية إن أخرجهم نور الدين محمود من مصر للإقامة بها[3]، فأرسل صلاح الدين أخاه شمس الدولة توران شاه على رأس حملة كبيرة لغزو بلاد النوبة، وذلك في أواخر سنة (568هـ / 1172م) لكنهُ وجدها قليلة الموارد لا تصلح لإقامة دولة للأيوبيين في حال دخول نور الدين محمود إلى مصر[4]، لكن هذه الحملة حققت حماية حدود مصر الجنوبية من غارات

1- ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص158_159؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، ق2، ص524؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص82.

2- أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، ق2، ص525؛ عنان: تراجم إسلامية شرقية وأندلسية، ص58.

3- ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص81.

4- أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، ق2، ص530_531؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص464؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج1، ص447؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص81.

النوبيين[1]، كما أرسل صلاح الدين سرية بقيادة قراقوش إلى بلاد إفريقية، فسيطروا حتى طرابلس الغرب[2].

نلاحظ من خلال المصادر التاريخية العربية الإسلامية أن الأمور قد هدأت مؤقتاً بين نور الدين محمود وصلاح الدين، بدليل أنه في (شوال سنة 568هـ / حزيران 1173م)، خرج صلاح الدين تنفيذاً لأوامر سيده نور الدين محمود نحو معاقل الصليبيين، إضافة لنصيحة والده بالهجوم عليهم، ولكنهُ لم يكد يفرض حصارهُ على حصن الكرك جنوب شرقي البحر الميت، حتى انسحب فوراً إلى مصر، عندما سمع باقتراب وصول نور الدين محمود على رأس قواته، متحججاً بمرض أبيه مرض الموت[3]، وبالفعل توفي والده، بعد انسحابهِ من حصارهِ حصن الكرك، ولكن ليس بسبب المرض ولكنه سقط عن فرسهِ بعد انسحاب صلاح الدين عن حصار حصن الكرك ومات بسببها[4]، فزادت تلك الحادثة الأمور تعقيداً، ونفذ صبر نور الدين محمود، حتى قرر استخدام القوة والتوجه لمصر لإخراج صلاح الدين منها وإرجاعه للطاعة[5]، ويذكر بعض المؤرخين أن صلاح الدين شرع ببناء السور الدائر بالقاهرة ومصر وذلك خوفاً

1- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص49_50؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص82.

2- ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص465.

3- ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص87؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص464؛ بيومي (علي): قيام الدولة الأيوبية، القاهرة، دائرة المعارف الإسلامية، 1952م، ص187.

4- أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، ق2، ص533؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج3، ص564.

5- ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص87؛ بيومي: قيام الدولة الأيوبية، ص187؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص220.

من نور الدين محمود[1]، تابع بحثهُ في إيجاد مكان بديل للأيوبيين في حال توجه نور الدين محمود مصر، فبعد النوبة التي لم تصلح للإقامة فيها أرسل صلاح الدين أخاه شمس الدين تورانشاه إلى اليمن في (رجب سنة 569هـ / آذار 1174م) بحجة القضاء على النفوذ الفاطمي وإعادة الخطبة للخليفة العباسي فأخضعها وصارت تابعة لصلاح الدين[2]، وبذلك يكون صلاح الدين قد ضمن ملجأً وموروداً مالياً ضخماً وسوق تجاري من خلال سيطرته على اليمن[3].

استغل أنصار الخلافة الفاطمية غياب تورانشاه ومعظم قوات صلاح الدين في اليمن لتنفيذ تحالفاتهم ضد صلاح الدين، حتى لا يحل مكان أخيه صلاح الدين في حال قتله، ففي (رمضان سنة 569هـ / نيسان 1174م)، اتصل أنصار الخلافة الفاطمية بالباطنية الحشيشية وهي القوة الشيعية الكبرى في بلاد الشام، طالبين منهم اغتيال صلاح الدين[4]، واتصل أنصار الخلافة الفاطمية بالصليبيين ببلاد الشام، واتفقوا على أن تقوم القوات الصليبية بغزو مصر في الوقت نفسه هم يشعلون الثورة في القاهرة

1- ابن أيبك: الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، ج7، ص42.

2- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص52؛ ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص87؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، ق2، ص552؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص472_473؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج2، ص447؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص220؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص87؛ سيمينوفا: صلاح الدين والمماليك في مصر، ص31.

3- ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص88.

4- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص53؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص222؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص89.

والفسطاط[1]، يضاف إلى ذلك أن المتآمرين اتصلوا بملك صقلية وليم الثاني النورماندي ليهاجم أسطوله الإسكندرية[2]، لكن هذه المؤامرة تم الكشف عنها قبل حدوثها. ذلك أن المتآمرين أشركوا معهم في سرهم الفقيه الخطيب الحنبلي زين الدين علي بن النجا الذي وضع صلاح الدين في جميع تفاصيل المؤامرة، فانكشف أمر زيارة مبعوث الملك عموري الأول، وبعد أن تأكد صلاح الدين من جميع تفاصيل المؤامرة، جمع المتآمرين فوراً، وصلب زعمائهم وذلك في (رمضان سنة 569هـ / نيسان 1174م)، في حين اختفى آخر الأمراء الفاطميين وهو ابن الخليفة العاضد[3]، أما الملك عموري الأول ملك مملكة بيت المقدس، فلم يكد يعلم بانكشاف سر المؤامرة في القاهرة، وإخفاق خطته الموضوعة لغزو مصر حتى انهارت معنوياته وتوفي مقهوراً في بيت المقدس في (ذو الحجة سنة 569هـ / تموز 1174م)[4]، أما أسطول صقلية[5] فعندما وصل إلى الإسكندرية في 28 من الشهر نفسهِ، وجد كل شيء قد انتهى فزعماء المؤامرة قد

1- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص54؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص36.

الفسطاط: اسم مصر التي بناها مصرام بن حام بن نوح عليه السلام، سميت بفسطاط عمرو بن العاص رضي الله عنه، فمدينة مصر اليوم هي الفسطاط وهي مدينة كبيرة في غاية من العمارة والطيب والحسن. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص441_442.

2- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص36.

3- ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص474_475؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص223.

4- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص54؛ عاشور: الحركة الصليبية، ج2، ص576.

5- صقلية: جزيرة في قطعة من بحر الشام بينها وبين أقرب بر من مالطة ثمانون ميلاً، افتتحها المسلمون في صدر الإسلام وغزاها أسد بن الفرات الفقيه أميراً وقاضياً سنة اثني عشرة ومائتين. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص366.

قتلوا، وحليفهم الملك عموري الأول قد مات، وعلى الرغم من ذلك حاولوا اقتحام الإسكندرية لكنهم فشلوا وعادوا أدراجهم[1].

أرسل صلاح الدين أخاه العادل أحمد في أوائل (صفر سنة 570هـ / أيلول 1174م)، إلى حدود النوبة للقضاء على ثورة قادها كنز الدولة أحد قادة الفاطميين، لإعادة الخلافة الفاطمية، إلا أن العادل أحمد استطاع القضاء عليه بشكل كامل[2].

في الوقت الذي كان فيه نور الدين محمود يستعد للسير إلى مصر وانتزاعها من صلاح الدين كان الأجل له بالمرصاد، إذ مات فجأة بعلة الخوانيق "الذبحة الصدرية" في (11 شوال سنة 569هـ / أيار 1174م)، عن عمرٍ يناهز الست وخمسين عاماً ودفن بقلعة دمشق[3].

استطاع صلاح الدين أن يستأصل جذور المؤامرة ضده، بفضل قوته وذكائه، وحل مشاكله مع سيده نور الدين محمود العقبة الأكبر والأهم في طريق تحقيق هدفه في تأسيس دولة مستقلة تحمل اسم أسرته في مصر وذلك بفضل القدر.

رابعاً_ سيطرتهِ على الشام وتوحيدها مع مصر:

1- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص54؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص224؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص89.

2- ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص89_90؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص224.

3- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص55_56؛ ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص88؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، ق2، ص581؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص491_492؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص90_91.

سعى نور الدين محمود إلى توحيد بلاد الشام والعراق وضم مصر للجبهة الإسلامية، لضمان تحرير البلاد من الوجود الفرنجي، إلا أن وفاته أدت إلى تفتت هذه الوحدة بسبب تقسيم دولة نور الدين محمود بين أمرائه وأهل بيته.

بعد وفاة الملك العادل نور الدين محمود تولى ابنه الملك الصالح إسماعيل[1]، الوريث الأول له حكم مصر والشام وأجزاء من إقليم الجزيرة بالعراق، لكنهُ كان صغيراً عند وفاة أبيه، فقد استغل سيف الدين غازي الثاني (565_575هـ / 1170_1180م) أتابك الموصل وفاة عمه نور الدين محمود، وضم إلى أملاكه نصيبين[2] والخابور[3] والرها[4] وغيرها[5].

لكن النزاع لم يقتصر على الأسرة الزنكية، بل تعداه إلى أمرائه، فدب الخلاف بين أقوى رجلين من أمراء نور الدين محمود، وهما شمس الدين علي ابن الداية وشمس

1- ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص91_92؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، ق2، ص585؛ ابن أيبك: الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، ج7، ص43.

2- نصيبين: احدى المدن في الجزيرة، تقع على طريق القوافل بين الموصل والشام. الحموي: معجم البلدان، ج2، ص288.

3- الخابور: نهر يمر بديار ربيعة حتى يصب في الفرات بعد مروره على وسط مدينة قرقيسيا والخابور مدينة لطيفة على شاطئ الفرات لها بساتين وحدائق وبها مات مسلمة بن عبد الملك، وكان يلقب بالجرادة الصفراء. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص211.

4- الرها: مدينة من أرض الجزيرة متصلة بحران، وهي مدينة ذات عيون كثيرة عجيبة تجري منها الأنهار وبينها وبين حران ستة فراسخ والرها مدينة روحية عليها سور من حجارة. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص273.

5- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص58؛ ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص175؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص93.

الدين محمد المعروف ابن المقدم، وكان سبب الخلاف الوصاية على الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود، فسيطر ابن الداية على قلعة حلب بوصفها مركز الدولة النورية وأعلن نفسه وصياً على الصالح إسماعيل، في حين تحفظ ابن المقدم على شخص الملك الصالح إسماعيل في دمشق ثم نقل إلى حلب[1]، وبذلك انقسمت دولة نور الدين محمود إلى دويلات في الموصل وحلب ودمشق وأصبحت مصر معزولة عنهم، في حين اعترف صلاح الدين الأيوبي بسلطنة الملك الصالح إسماعيل، وأمر بالدعاء له في خطبة الجمعة، وضرب السكة باسمه[2].

أثناء ذلك النزاع ظهر صوت بعض الحكماء ينادي بالاستعانة بتحكيم صلاح الدين بوصفه أقوى أمراء الدولة النورية وهو من أصحاب نور الدين محمود ونائبه على مصر، لكن أمراء الشام رفضوا مخافة أن يطيح بهم صلاح الدين ويضم الشام إلى مصر[3]، لكن هذا التنافس بين الأمراء في بلاد الشام ومصالحتهم للصليبيين أثار غضب صلاح الدين وأدرك أنه من واجبه الحفاظ على وحدة المسلمين قبل التصدي للصليبيين، حيث أرسل رسائل إلى أمراء الشام يحثهم على الوحدة والوفاء لنور الدين

1- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص58؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص227.

2- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص58؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، ق2، ص585؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص229؛ الباقوري: حطين طريق الانتصار، ص27؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص95.

3- ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص162؛ الحويرى: بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين، ص166؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص40.

محمود ويذكرهم بأنه الأقرب والأكثر وفاءً لسيدهِ نور الدين محمود وابنه وبأنه الأحق بالوصاية على ابن سيده[1]. فهو الأقوى من حيث الجند والسيطرة على موارد مصر.

ومن هنا كان واجب صلاح الدين المبادرة بالحفاظ على وحدة المسلمين، لكن أوضاع مصر في تلك الفترة شغلته عن التوجه إلى الشام، حيث تعرضت مصر لهجومين من الشمال والجنوب، ففي (ذي الحجة سنة 569هـ / تموز 1174م) ظهر أسطول ضخم أمام الإسكندرية أرسلهُ ملك صقلية وليم الثاني (550_585هـ / 1155_1189م)، وفقاً لاتفاق أنصار الدولة الفاطمية كما تم ذكرهُ سابقاً بهدف تطويق صلاح الدين والقضاء عليه غير أن شجاعة أهل الإسكندرية ومساندة الجيش الأيوبي وفشل المؤامرة أفشلت تلك الحملة[2]، أما الخطر الثاني كما ذكرناه أيضاً سابقاً، فكان من الجنوب والممثل في الحركة التي قادها كنز الدولة عباس بن شادي أحد ملوك النوبة في أسوان[3]، فاستغل تجمع السودانيين وبقايا الخلافة الفاطمية لإحيائها مرة ثانية، فأرسل له صلاح الدين أخاه الملك العادل أحمد على رأس جيش ضخم والتقى

1- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص58؛ ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص92.

2- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص63؛ ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص90_91؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، ق2، ص599_600؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص499؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص99.

3- أسوان: في الصعيد آخر بلاد مصر، وفي بلادهم من الجبال والأوكار التي تحول بينهم وبين النوبة ولولاها لأفسدت النوبة بلاد مصر، وأسوان من ثغور النوبة وهي مدينة صغيرة كثيرة الخصبة. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص57.

بهم في معركة ضارية انتهت بمقتل كنز الدولة في (صفر سنة 570هـ / أيلول 1174م) وبذلك تم القضاء على آخر محاولة قامت بها البقايا الفاطمية[1].

من العوامل التي دفعت صلاح الدين للتدخل في شؤون الشام، هو استغلال الصليبيين حالة التمزق التي أصابت البلاد بعد وفاة نور الدين محمود ومهاجمتهم بانياس[2]، حيث صمدت المدينة للحصار لمدة أسبوعين، ولكن بدلاً من قيام الأمير شمس الدين بن المقدم بمهاجمة الصليبيين والدفاع عن المدينة قام بمراسلتهم وعرض عليهم مبلغاً من المال وإطلاق سراح الأسرى الصليبيين عند المسلمين، مقابل الرجوع عن بانياس، فقبل بذلك الصليبيون وجرى الصلح بينهما، ولما وصلت الأخبار لصلاح الدين بذلك، أنكر هذا التصرف وكتب إلى أمراء الشام يوبخهم[3]، واستناداً إلى المؤرخ الصليبي الفرنجي وليم الصوري، أنهُ كان لأرملة نور الدين محمود دور مهم في صمود بانياس حيث عملت على شراء هدنة من الملك عموري الأول إضافة إلى تقويتها للحامية الموجودة في بانياس، وهذا ما لم تذكرهُ المصادر العربية، ولكن تدهور صحة الملك عموري الأول جعلتهُ يقبل بشروط الهدنة وينسحب إلى طبرية[4].

1- ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص500؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص99_100.

2- بانياس: مدينة قريبة من دمشق، وهي ثغر بلاد المسلمين، صغيرة لها قلعة يستدير بها نهر يفضي الى أحد أبواب المدينة، وكانت بيد الفرنج. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص74.

3- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص63_64؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، ق2، ص597؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص494؛ الباقوري: حطين طريق الإنتصار، ص36.

4- ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص94.

لقد أدت الخلافات بين أمراء الدولة النورية في الشام إلى استنجاد ابن المقدم بصلاح الدين فجاءت هذه الدعوة بداية لمرحلة جديدة في تاريخ صلاح الدين وتاريخ الحركة الصليبية.

كان أخطر ما يخشاه صلاح الدين هو أن تتمزق الجبهة الإسلامية في مواجهة الصليبيين، بانفصال الشام عن مصر[1]، وذلك أن الأمير سعد الدين كمشتكين استبد بتدبير الملك الصالح إسماعيل وانتقل به إلى حلب حيث قبض على الأمير شمس الدين ابن الداية وإخوته وهو من أعز أصحاب صلاح الدين[2]، خرج صلاح الدين على رأس جيش كبير من مصر وبعد أن عين أخاه الملك العادل أحمد نائباً عنهُ فيها، متجنباً الصدام مع الصليبيين، حتى وصل إلى دمشق في (آخر ربيع الآخر سنة 570هـ / تشرين الثاني 1174م) ففتح له ابن المقدم أبواب المدينة وسلمه إياها، وبذلك وصل إلى دمشق وتسلمها بغير قتال، ونزل صلاح الدين بدار والده بدمشق معلناً أنه يسعى لإعادة الوحدة الإسلامية[3]، وقد حرص صلاح الدين في تلك الفترة على إظهار الولاء للصالح إسماعيل، وأعلنها على الملأ "أنا، مملوك الصالح، وما جئت إلا لأنصره

1- أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، ق2، ص589 ،597؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص494.

2- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص66؛ ابن أيبك: الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، ج7، ص43؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص102.

3- المنصوري (بيبرس بن عبد الله، ت 725هـ / 1325م): مختار الأخبار تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة 702هـ، تح: عبد الحميد صالح، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ط1، 1993م، ص3؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص501؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج3، ص114؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص235؛ الباقوري: حطين طريق الانتصار، ص28.

وأخدمه"[1] رغب صلاح الدين على استمالة أهل دمشق فقام بتوزيع الأموال وإبطال بعض الضرائب التي فرضت بعد وفاة نور الدين محمود، وذلك لجعلها مركزاً لانطلاقتهِ نحو الشمال، ثم انطلق لتحقيق هدفه بتوحيد المسلمين وطرد الصليبيين ومعاقبة سعد الدين كمشتكين الذي استبد بالأمور في حلب، فاستولى على حمص وحماة في (جمادى الأولى سنة 570هـ / كانون الأول 1174م)[2]، وأثناء وجودهِ بحماة أرسلَ سفيراً ليتوسط بينهُ وبين الحلبيين فكان مصيرهُ السجن، ونتيجة لذلك توجه صلاح الدين إلى حلب لمحاصرتها ولكنهُ لقي معارضة شديدة وخاصة أن الصالح إسماعيل خاطب مشاعر أهل حلب متباكياً ومحرضاً على قتال صلاح الدين مذكراً لهم بحسناتِ والدهِ[3]، فاستجاب أهل حلب لندائهِ ووقفوا إلى جانبه، حدث هذا في الوقت الذي لجأ كمشتكين الوصي على الصبي الصالح إسماعيل إلى الاستعانة بسنان[4] زعيم الباطنية في الشام لإبعاد صلاح الدين عن أسوار حلب، فاستجاب لطلبهِ، وأرسل له جماعة من الفدائيين

1- أبو الفدا: التبر المسبوك في تواريخ الملوك، ص66؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص236.

2- ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص93؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، ق2، ص605_607؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص236؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص106_107، 109.

3- ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص502؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص111.

4- سنان بن سليمان (528_588هـ / 1134_1192م): مقدم الإسماعيلية وصاحب دعوتهم في الشام أصله من البصرة، وكان في حصن ألموت، قرأ الفلسفة والجدل، وانتقل الى الشام في أيام السلطان نور الدين محمود، وجرت عدة قصص ووقائع بينه وبين نور الدين وصلاح الدين، والى سنان تنسب الطائفة السنانية. ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ج1، ق2، ص61.

متنكرين بثياب جندهِ، وتمكنوا من التسلل إلى خيمتهِ وطعنهُ أحدهم بخنجرهِ في رأسهِ وخدهِ فجرحهُ جرحاً غير مميت، ونجا بأعجوبة من محاولة الاغتيال تلك، وذلك في سنة (571هـ / 1175م)[1].

بعد إخفاق الباطنية في اغتيال صلاح الدين، أرسل الحلبيين إلى أمير طرابلس[2] ريموند الثالث (534_583هـ / 1140_1187م) _وكان الوصي على عرش مملكة بيت المقدس_ يدرك أهمية تحالف الصليبيين مع حلب، كما أدرك خطورة قيام وحدة إسلامية بين القاهرة ودمشق وحلب، لذلك أسرع في تلبية طلب أمراء حلب[3]، ويذكر المؤرخ أبو شامة أن أمراء حلب طلبوا من أمير طرابلس الصليبي أن يهاجم بعض المراكز التي بيد صلاح الدين حتى يضطر إلى رفع الحصار عن حلب[4]، فتوجه على رأس قواته لمهاجمة حمص في (رجب سنة 570هـ / شباط 1175م) ليصرف أنظار صلاح الدين عن حلب، وفعلاً اضطر صلاح الدين إلى فك الحصار عن حلب لإنقاذ

1- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص67_68؛ الباقوري: حطين طريق الانتصار، ص30؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص111.

2- طرابلس: وهي على شاطئ البحر، كثيرة الثمار والخيرات، يحيط بها سور صخري جليل البنيان. الحموي: معجم البلدان، ج4، ص25.

3- قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص237؛ الباقوري: حطين طريق الانتصار، ص30؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص112.

4- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص68؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، ق2، ص611؛ الباقوري: حطين طريق الإنتصار، ص30؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص112.

حمص، ولم يرجع الصليبيون عن حمص إلا بعد أن تأكدوا من انسحابه من حلب[1]، وبعد أن اطمأن صلاح الدين على سلامة حمص، غادرها متوجهاً إلى بعلبك، وبعد أن فقد الأمل حاكمها من وصول المساعدة من حلب، ورأى كثرة عساكر صلاح الدين، طلب الأمان من صلاح الدين وسلمهُ بعلبك في (رمضان سنة 570هـ / نيسان 1175م)[2].

كتب صلاح الدين إلى الخليفة العباسي المستضيء بنور الله، رسالة طويلة في سنة (570هـ / 1175م)، عدد له فيها فتوحاته وجهاده ضد الصليبيين، وأنهُ أعاد الخطبة للخليفة العباسي في مصر، وهو في خدمة ابن نور الدين محمود، وطلب في ختامِ رسالتهِ من الخليفة تقليداً جامعاً لمصر واليمن والمغرب والشام، وجميع ما اشتملت عليه دولة نور الدين محمود وكل ما يفتحهُ بسيفهِ، وكان هدف صلاح الدين من ذلك إضفاء الشرعية على أعماله في بلاد الشام[3].

أحس الحكام الزنكيون جميعاً بخطر صلاح الدين بعد أن خضعت له مدن دمشق وحمص وحماه وبعلبك الأمر الذي جعلهم يتكاتفون لمواجهتهِ، لذلك أجمع الحلبيون على الاستنجاد بسيف الدين غازي صاحب الموصل ضد صلاح الدين، وأقنعوه بأن الطريق للسيطرة على الموصل هو السيطرة على حلب، فأرسل سيف الدين غازي جيشاً

1- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص68؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، ق2، ص611؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص503؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص113.

2- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص68؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، ق2، ص631؛ أبو الفدا: التبر المسبوك في تواريخ الملوك، ص66؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص114.

3- أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، ق2، ص616_623؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص44.

إلى الشام بقيادة أخيه مسعود، وانضم إليه عسكر الصالح إسماعيل صاحب حلب، ليتجه الجميع نحو حماة وفرضوا عليها الحصار مترافق مع مراسلة صلاح الدين في أمر الصلح، فقبل صلاح الدين أن يرد لهم حمص وحماة، وأن يكون نائباً عن الملك الصالح إسماعيل في دمشق[1]، فلما رأوهُ مستجيباً لمطالبهم تمادوا عليه بحجةِ ضعفهِ بقلة عسكره، فرفض مطالبهم، ودارت معركة بين الجانبين عند سفح قرون حماة في (رمضان سنة 570هـ / نيسان 1175م)، انتهت بانتصار صلاح الدين وغنم منهم مغانم كثيرة، وعادت القوات الزنكية المنهزمة إلى حلب[2]، ولم يهدر انتصاره هذا بل تتبع الزنكيين إلى حلب وحاصرها ولما أطال عليها الحصار بعث الحلبيون يلتمسون منهُ الصلح فأجابهم بشرط أن يكون له ما بيده من بلاد الشام ولهم ما بيدهم وأخذ أيضاً كفر طاب والمعرة وبعد أن استقر الصلح بين الطرفين رحل صلاح الدين عن حلب من شهر (شوال سنة 570هـ / أيار 1175م) من نفس العام، ولم تمض أيام قليلة على وصوله إلى حماة حتى وصلت إليه رسل الخليفة العباسي المستضيء بنور الله (536_575هـ / 1142_1180م) حاملة التشريفات السلطانية وتقليد صلاح الدين

1- ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص505؛ الحويرى: بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين، ص171؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص116.

2- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص 69؛ ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص94؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، ق2، ص633_634؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص505_506؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص240؛ الباقوري: حطين طريق الانتصار، ص30.

بما أراده من ولايات، فقطع صلاح الدين خطبة الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود وأزال اسمه عن السكة في بلادهِ، واتخذ لنفسه لقب "ملك مصر والشام"[1].

لم يدرك الزنكيين أهمية إجراءات الخليفة العباسي تجاه صلاح الدين وعدوه أمراً لا قيمة له، أما بالنسبة لصلاح الدين فقد نال الشرعية في أعمالهِ، وأصبح المسؤول الأول عن الجهاد ضد الصليبيين بتكليف من الخليفة العباسي وليس من قبل الزنكيين[2].

غضب حاكم الموصل سيف الدين غازي عندما علم بهزيمة عساكره والصلح الذي تم مع صلاح الدين، واتهمهم بالضعف، وحرضهم على نقض الصلح ومحاربة صلاح الدين فوافقوهُ على ذلك، وعندما تحقق صلاح الدين من الخبر، بدأ يستعد للقتال، فأرسل إلى أخيه العادل أحمد الأيوبي نائبهُ في مصر يأمره بإعداد العساكر والخروج إلى الشام في (شعبان سنة 571هـ / آذار 1176م) وذلك ليصفي حسابه مع الصالح إسماعيل وسيف الدين غازي وأمراء البيت الزنكي لنقضهم الصلح[3].

1- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص 69؛ ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص95؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، ق2، ص634؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص506؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص244؛ الباقوري: حطين طريق الانتصار، ص32؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص122؛ سيمينوفا: صلاح الدين والمماليك في مصر، ص100.

2- الحويرى: بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين، ص172.

3- أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، ق2، ص647_648؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص510؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص241-242؛ الباقوري: حطين طريق الانتصار، ص32.

بدأ حاكم الموصل سيف الدين غازي يجمع عساكره ويوزع عليهم الأموال، فاستنجد بصاحب كيفا[1] وصاحب حصن ماردين[2] وغيرهما، وتوجه إلى حلب حيث انضم إليه مدبر دولة الملك الصالح إسماعيل كمشتكين على رأس الجيوش الحلبية[3]، واستعان بالصليبيين وعلى رأسهم حاكم طرابلس ريموند الثالث فدارت موقعة بين الطرفين عند تل السلطان على الطريق بين حماة وحلب في (شوال سنة 571هـ / نيسان 1176م)، فحلت الهزيمة الساحقة بالزنكيين وحلفائهم وقتل منهم كثيرون[4]، وفي ميدان المعركة هرب سيف الدين غازي تاركاً ورائه معسكره وبه جميع متعلقاته، فدخله صلاح الدين، ووجد به آلات الطرب والصيد وأنواع الخمور وأدوات اللهو من الحمام والبلابل والببغاوات في الأقفاص، فبعث بها إلى سيف الدين غازي مع رسول، وقال له في لهجةٍ مليئةٍ بالتهكم والسخرية "خذ هذه الأقفاص واذهب بها إلى سيف الدين وأوصلها إليه، وسلم عنا عليه وقل له: عد إلى اللعب بهذه الطيور، فهي سليمة لا توقعك في

1- كيفا: أظنها أرمينية، وهي بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر. الحموي: معجم البلدان، ج2، ص265.

2- ماردين: مدينة من ديار ربيعة بعمل الموصل، بينها وبين دارا نصف مرحلة، وهي في سفح جبل ولها قلعة كبيرة شهيرة. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص518.

3- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص74؛ الحويرى: بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين، ص172_173.

4- قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص242؛ الباقوري: حطين طريق الانتصار، ص32؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص129.

المحذور"[1]، بمعنى أن سيف الدين غازي يجب عليه اللعب بهذه بدلاً من خوض الحروب.

أراد صلاح الدين أن يقطع الصلة بين حلب والموصل لذلك ركز جهوده في الاستيلاء على بعض القلاع الواقعة شرقي حلب مثل بزاعة التي استولى عليها في (22 شوال سنة 571هـ / 3 أيار 1176م) ثم سار إلى منبج[2] وحاصرها لكنهُ لقي مقاومة عنيفة فيها، ولم تستسلم له إلا بعد أن أمر النقابين بنقب أسوار قلعتها، ثم فرض حصار على إعزاز واستولى عليها في (ذي الحجة سنة 571هـ / تموز 1176م)، هذه الانتصارات أثارت خوف الباطنية، فحاولوا اغتيال صلاح الدين للمرة الثانية أثناء حصاره لإعزاز حيث تسلل أحد الباطنية إلى خيمتهِ وضرب رأس صلاح الدين بسكين لولا الزرد الذي تحت القلنسوة "العمامة" لقتلهُ[3].

بعد استيلائه على إعزاز اتجه لحصار حلب للمرة الثالثة، وأثناء الحصار ترددت الرسل بينه وبين الحلبيين بشأن الصلح، على أن تكون حلب وأعمالها وقلعة إعزاز

1- أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، ق2، ص651؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص510_511؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص130.

2- منبج: هي مدينة حسنة البناء كثيرة المياه والأشجار، دورها وأسوارها مبنية من الحجارة، وهي قريبة من الثغور الشمالية، افتتحت صلحاً من قبل عمرو بن العاص، تعني منبج مدينة الكهان. ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ج1، ق2، ص444 ،449.

3- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص75_76؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، ق2، ص656_658؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص511_512؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص243؛ الباقوري: حطين طريق الانتصار، ص33؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص131_132.

للصالح إسماعيل فقط، وعقد الطرفان الصلح في (المحرم سنة 572هـ / تموز 1176م) بعد ذلك ترك صلاح الدين حصار حلب[1].

أما الباطنية "الحشيشية" الذين حاولوا اغتيال صلاح الدين أكثر من مرة ونجا بأعجوبة منهم فقد أراد الانتقام منهم، بعد عقد الصلح مع الحلبيين فتوجه لحصارهم في أمنع قلاعهم مصياف وقتل منهم الكثير ولم يتوقف حتى تشفع خاله حاكم حماة شهاب الدين الحسامي، وكانوا قد راسلوه لأنهم جيرانه[2]، ونتيجة لذلك أخذ صلاح الدين حذره، فأعد برجاً خشبياً حول خيمته، وصار ينام ولا يُسمح لمن لا يعرفه بالاقتراب أو الدخول عليه[3].

وهكذا نلاحظ أن مصالح الحكام الزنكيين والباطنية والصليبيين جميعاً تلاقت في التحالف ضد صلاح الدين والوقوف ضد أهدافه في تحقيق وحدة إسلامية بين مصر والشام وشمال العراق، والتي بدء بها نور الدين محمود، وهذه الوحدة كانت إنذاراً للحلفاء الثلاثة بالقضاء عليهم.

1- أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، ق2، ص668؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص512 ،516؛ الباقوري: حطين طريق الانتصار، ص33.

2- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص81؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، ق2، ص669؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص516؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص267؛ الباقوري: حطين طريق الانتصار، ص33.

3- أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، ق2، ص660؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص242؛ الحويرى: بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين، ص174.

وفي آواخر سنة (572هـ / 1176م) تزوج صلاح الدين من عصمة الدين خاتون أرملة نور الدين محمود، وذلك حتى يظهر في صورة الوريث الشرعي لنور الدين محمود في أعين الشاميين، ثم قرر العودة إلى مصر[1].

إننا من خلال دراستنا لتاريخ صلاح الدين في تلك المرحلة نجدهُ لا يكاد يحارب الزنكيين عند أسوار حلب، حتى يعقد معهم الصلح ويتجه لردع الصليبيين، ولا يكاد يدخل في حرب ضد الصليبيين حتى يقبل طلبهم للهدنة ويسرع إلى مصر ليشرف على أوضاعها وتحصيناتها، ولا يكاد يقضي بعض الوقت في مصر حتى يعود للشام ليبدأ الدورة من جديد.

كان صلاح الدين مدركاً لحقيقة أن أي عمل حربي ناجح ضد الصليبيين، لا يتحقق إلا بتوحيد الجبهة الإسلامية والذي يجب أن يبدأ بضم حلب والموصل، فقد بدأ صلاح الدين بالموصل سنة (578هـ / 1182م)، وذلك عندما بلغهُ استعانة حكام الموصل بالفرنج الصليبيين والتعاون معهم ضد صلاح الدين، لكن صلاح الدين لم يأت بنتيجة لحصارهِ للموصل بأي نجاح محقق، وذلك لأن حاكم الموصل عز الدين مسعود (572_589هـ / 1176_1192م)، قد أعد عدته للحصار، وحشد داخل مدينتهِ أعداداً ضخمة من المقاتلين، وكميات وافرة من الطعام والسلاح والذخيرة[2]، أدى ذلك إلى إخفاق صلاح الدين في الاستيلاء على الموصل ووضعهُ بموقف حرج، لذلك عمل على طلب التأييد من الخليفة العباسي أحمد الناصر لدين الله (553_622هـ / 1158_1225م)، فأرسل له رسالة يتهم فيها أتابك الموصل بالتحالف مع الصليبيين، فرد على ذلك أتابك الموصل بالاستعانة ببعض القوى الإسلامية المجاورة، مثل صاحب

1- أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، ق2، ص676؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص518؛ الحويرى: بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين، ص174.

2- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص114_115.

أذربيجان[1] وصاحب أخلاط[2] وغيرهما، أما الخليفة العباسي فقد سعى إلى الوساطة بينهما[3]، وهذا يفسر لنا سبب اشتداد الغارات الصليبية على بصرى[4] ودمشق وحوران[5] في تلك الفترة، ويؤكد لنا أن حكام الزنكيين حالفوا الصليبيين عندئذٍ، وطلبوا منهم مهاجمة دمشق لطرد صلاح الدين منها، وقد نجحت تلك الهجمات في تحويل نظر صلاح الدين عن الموصل فعاد إلى شمال الشام في صيف (578هـ / 1183م)[6].

توفي الملك الصالح إسماعيل حاكم حلب في الحادية عشر من عمرهِ (25 رجب سنة 577هـ / 3 كانون الأول 1181م)، بعد أن أوصى بحكم حلب لابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل لاستطاعته في الوقوف في وجه صلاح الدين لكثرة عسكره وأمواله[7]، فتسلم عز الدين مسعود حلب لكنه أدرك صعوبة مهمته وعدم

1- أذربيجان: صقع جليل، ومملكة عظيمة، الغالب عليها الجبال، فيه قلاع كثيرة، وخيرات واسعة وفواكه جمة، هي بلاد فتن وحروب. الحموي: معجم البلدان، ج1، ص128.

2- أخلاط: البلدة العامرة المشهورة ذات الخيرات الواسعة، وهي قصبة أرمينية الوسطى. الحموي: معجم البلدان، ج2، ص380_381.

3- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص48.

4- بصرى: الشام من أعمال دمشق، وهي قصبة كورة حوران مشهورة عند العرب قديماً. الحموي: معجم البلدان، ج1، ص441.

5- حوران: جبل بالشام من أعمال دمشق ومدينتها بصرى، وفي شرقي هذه المدينة تجتمع مياه دمشق وتسير في صحراء مقدار خمسة عشر فرسخاً فتدخل دمشق. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص206.

6- عاشور: الحركة الصليبية، ج2، ص61.

7- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص106؛ ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص99؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16،

إمكانيته الاحتفاظ بحلب والموصل معاً من صلاح الدين لبعد المسافة بينهما، لذلك تنازل عنها لأخيه حاكم سنجار[1] عماد الدين زنكي الثاني (566_593هـ / 1171_1197م)، مقابل أن يأخذ سنجار عوضاً عنها، وبعض المؤرخين يذكر بأن حاكم سنجار عماد الدين زنكي طالب بذلك، فوافق عماد الدين الثاني واستلم حلب في (13 محرم سنة 578هـ / 13 أيار 1182م)، واستقر بها[2]. ومن الواضح أن تصرفات حكام الزنكيين كانت بعكس أهداف صلاح الدين الوحدوية.

بعد أن جمع صلاح الدين الجيوش غادر مصر إلى الشام في (محرم سنة 578هـ / أيار 1182م)، وذلك لحماية مصالحهِ في الشام[3]، ليتوجه لحصار حلب، وقد أبدى أهل حلب وأمراء النوريين مقاومة عنيفة، عند حصار صلاح الدين لحلب، ولشدة بخل عماد الدين زنكي الثاني، رفض إعطاء المال لسد نفقات الجند، ولم يتمتع بالشجاعة والدهاء، حيث رفض عماد الدين الزنكي الثاني الاستعانة بالصليبيين أو حتى بأخيه حاكم الموصل عز الدين مسعود، ولم تنفع مقاومة الحلبيين لوحدهم، وخاصة أن

ص551_552؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص288؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص190_191.

1- سنجار: هي برية الثرثارة، ومدينتها الحضر، وهي كلها من الجزيرة، وفي سنجار فوهة نهر الخابور، ويمر بها حتى يصب في الفرات. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص326.

2- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص108؛ ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص100؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص552_553؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص288؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص195_196.

3- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص110؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص553؛ الحويرى: بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين، ص196.

حاكمهم عماد الدين زنكي الثاني خطط للهرب وراسل صلاح الدين سراً يعرض عليه تنازله عن حلب مقابل إعطائه بلدة سنجار، وكان صلاح الدين قد رحب بهذا العرض وزاده الخابور ونصيبين والرقة[1] وسروج[2] مقابل مساعدته في قتال الصليبيين[3]، فقد كسب صلاح الدين بهذا الاتفاق مكسباً عظيماً لا يقدر بثمن لأهميته.

دخل صلاح الدين قلعة حلب في (18 صفر سنة 579هـ / 11 حزيران 1183م)، ورفع رايته الصفراء، وألغى الضرائب، وأسقط المكوس، وعين عليها ابنهُ الظاهر غياث الدين غازي[4] (568_613هـ / 1173_1216م)، مما لا شك فيه أن سيطرة صلاح الدين على حلب جاء نصراً كبيراً في تحقيق مشروع توحيد الجبهة الإسلامية، كما كان

1- الرقة: مدينة في الجزيرة الفراتية الى جانب واد ينبسط يليها الماء عند المد فهي رقة، وسميت المدينة والرقة واسطة بلاد حضر ومن مدنها الرها وسروج ورأس العين. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص270.

2- سروج: بلد من أرض الجزيرة وبمقربة من ملطية وهي رستاق كثير القرى والكروم في بطن بين جبال، وهي تقع شمال حران، حصينة كثيرة الأشجار والمياه. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص315؛ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ج3، ق1، ص101.

3- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص121؛ ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص101_102؛ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ج1، ق2، ص407_408؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص563؛ الباقوري: حطين طريق الانتصار، ص50؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص233.

4- ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص106؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص564_565؛ الحويرى: بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين، ص196.

ضربة كبرى أحس بها الصليبيون واعترف بها مؤرخيهم[1]، بعد استيلاء صلاح الدين على حلب وجه أنظاره لحصار الموصل للمرة الثانية (581هـ / 1158م) أكثر من الصليبيين، وعندما وصل صلاح الدين إلى بلد أرسل لهُ عز الدين مسعود وفداً يضم والدتهِ وابنة نور الدين محمود مع سيدات أخريات، طالبين الصلح من صلاح الدين وعقد معاهدة سلام تتضمن أن تكون القوات الموصلية في خدمة صلاح الدين عندما تقضي الحاجة مع استقلال الموصل، لكنهُ رفض طلبهن، وفيما بعد ندم على ردهم خائبين[2]، ثم ترك حصار الموصل مؤقتاً ليستولي على ميافارقين[3]، وعندما عاد صلاح الدين لحصار الموصل للمرة الثالثة أصابه المرض، فاستغل أهل الموصل ذلك وسعوا إلى الصلح، وفعلاً تم الصلح بين صلاح الدين وحاكم الموصل عز الدين مسعود في (محرم سنة 582هـ / آذار 1186م)، وبموجب هذا الصلح رضي حاكم الموصل بأن يكون تابعاً لصلاح الدين وبأن يخطب باسمهِ على المنابر ويضرب السكة باسمه[4]، وأن يتعهد حاكم الموصل عز الدين مسعود بمساعدة صلاح الدين بالمال والجيش لاستعادة بيت المقدس، ولما تم الصلح أهدى صلاح الدين هدايا قيمة لعز

1- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص49.

2- ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص267_268.

3- ميافارقين: بلد معروف من أرض أرمينية بين حدود الجزيرة وحدود أرمينية وهي من شرقي دجلة، وفتحها عياض بن غنم على مثل صلح الرها. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص567.

4- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص134؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص570؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص270، 279.

الدين، وبعد شفاء صلاح الدين من مرضه توجه إلى دمشق في (ربيع الأول سنة 582هـ / أيار 1186م)[1].

وبذلك استطاع صلاح الدين إعادة الوحدة للبلاد الإسلامية العربية، بعد وفاة نور الدين محمود، وعادت البلاد من الفرات إلى النيل تخضع لسلطة واحدة، وتم استكمال تحقيق جبهة إسلامية واحدة. ولم يبق أمام صلاح الدين إلا العناية بتحصين مصر وبعض المناطق الداخلية، تمهيداً لإنزال الضربات القاسية بالصليبيين، وهكذا نجح صلاح الدين في بناء أعظم دولة ممتدة من أعالي العراق والجزيرة والشام ومصر واليمن، وهذا ما لم يحققهُ سيدهُ نور الدين محمود، وبذلك أتم الخطوة الأولى من هدفه في توحيد البلاد، ثم البدء بالجهاد ضد الصليبيين.

خامساً_ تحصين مصر "تحصين عاصمة البلاد":

عين صلاح الدين أخاه شمس الدين تورانشاه نائباً عنه بدمشق قبل أن يغادرها إلى مصر لتنظيم أمورها الداخلية في (ربيع الأول سنة 582هـ / أيار 1186م)[2]، وهنا نلاحظ أن صلاح الدين لم يتخذ الشام مقراً له كما فعل نور الدين زنكي في صراعه مع الصليبيين، بل اتخذ مصر وعمل على تحصينها كجبهة موحدة مع الشام ضد الخطر الصليبي.

وفي الوقت نفسه لم ينس صلاح الدين مطامع الصليبيين في مصر، وظل طيلة الوقت الذي قضاه في توحيد الجبهة الإسلامية متخوفاً من قيام الصليبيين بهجوم مباغت على مصر، مثلما فعل ملك بيت المقدس السابق الملك عموري الأول، إذ إن

1- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد10، ص135؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص571؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص292.

2- ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص517؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص139.

صلاح الدين لم يكن مبالغاً في مخاوفه، فقد كانت اتصالات جادة بين الصليبيين والبيزنطيين سنة (573هـ / 1177م) للقيام بمحاولة جديدة لغزو مصر[1].

إن تفكير صلاح الدين في تحصين مصر يرجع إلى أيام وزارته، أي قبل سقوط الخلافة الفاطمية، وذلك أن صلاح الدين شرع في سنة (567هـ / 1171م) في ترميم سور القاهرة وإصلاح ما فيه من عطب بعد أن "تهدم أكثرهُ وصار طريقاً لا يرد داخلاً ولا خارجاً"[2]، فقد عمل صلاح الدين وقتها ضمن إمكاناته المتاحة فقد كان وزيراً فاطمياً وقائداً عسكرياً لنور الدين محمود من جهة ثانية، لكن إمكانيات صلاح الدين تغيرت بعد وفاة الخليفة الفاطمي العاضد ثم وفاة سيدهِ نور الدين محمود، حيث أصبح سيد البلاد والمسؤول عن حمايتها وصيانتها.

لقد اكتسب صلاح الدين في الفترة التي قضاها في بلاد الشام التعرف على عدة مدن محصنة، وحصون مسورة بأسوار عالية محكمة البناء، وهكذا عاد صلاح الدين من الشام إلى مصر سنة (572هـ / 1176م) ثم سنة (577هـ / 1181م)، ليقوم بسلسلة من التحصينات القوية لحماية مصر وعاصمتها وثغورها ضد أي هجوم مفاجئ من جانب الصليبيين[3]، وقد علمتهُ التجربة أن المدينة تسقط بسهولة، في حين تظل القلعة صامدة فتشكل ملاذاً آمناً للأهالي وقاعدة للمقاومة يمكن من خلالها استعادة المدينة مرة أخرى[4].

1- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص49_50.

2- المقريزي: الخطط المقريزية، ج2، ص96_97.

3- ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص519؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص275.

4- الحويرى: بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين، ص176.

حيث كانت الفسطاط والقاهرة لكل منهما سور منفصل عن الآخر[1]، وقد كان اختيار صلاح الدين لجبل المقطم[2] مكاناً لبناء القلعة مناسباً من الناحية العسكرية وذلك يساعده على بناء سور واحد يحيط به الفسطاط والقاهرة وقلعة يسيطر ويدافع بها عن المدينة ومقر له في السلطنة فكانت القلعة على علو مائتي وخمسين قدما[3]، وملاذاً يحتمي به إذا هددتهُ ثورة داخلية من جانب أتباع الفاطميين، أو خطر خارجي من جانب الصليبيين[4].

بدأ ببناء القلعة والسور حول مصر والقاهرة سنة (572هـ / 1176م)[5]، واستمر العمل بها لمدة ثلاثين عاماً حتى عهد الملك الكامل محمد (615_635هـ / 1218_1238م)، وأشرف على البناء الخصي بهاء الدين قراقوش الأسدي[6] واستخدمت حجارة الأهرامات الصغيرة الموجودة بالجيزة[7] بعد هدمها في بناء السور والقلعة، وبلغ محيط السور الجديد بعد إتمامه أربعة وعشرين كيلو متراً[8].

1- أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، ق2، ص687.

2- المقطم: جبل يتصل بمصر أوله من ديار مصر، فيمر في الصحراء الى أن ينتهي الى قرب أسوان، وهو جبل مشهور بالطول. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص557.

3- الحويرى: بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين، ص176.

4- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص51.

5- المنصوري: مختار الأخبار تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة 702هـ، ص3.

6- المقريزي: الخطط المقريزية، ج3، ص35، 41.

7- الجيزة: بلدة في غربي فسطاط مصر قبالتها، ولها كورة واسعة وهي من أفضل كور مصر. الحموي: معجم البلدان، ج2، ص200.

8- الحويرى: بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين، ص176.

كما عمل على إحياء البحرية كسلاح مضاد للعدوان الصليبي، فأمر بإنشاء ديواناً خاصاً للإنفاق على الأسطول عرف باسم ديوان الأسطول سنة (572هـ / 1176م)[1]، كما كانت أغلب غزوات الصليبيين لمصر تأتي عن طريق شبه جزيرة سيناء وهي المنطقة التي تفصل بين مصر ومملكة بيت المقدس الصليبية الممتدة حتى حدود مصر في صحراء النقب، فأمر بإقامة مراكز محصنة وسلسلة من القلاع، أهمها قلعة صدر في قلب سيناء وشرقي السويس في طريق آيلة[2]، ولا تزال القلعة موجودة إلى الآن، وقد زودها بالصهاريج لحفظ المياه[3].

وهكذا اهتم صلاح الدين اهتماماً كبيراً بتحصين عاصمة مصر وموانئها وثغورها حتى يأمن من غدر الصليبيين، وإن اهتمامه ببناء القلاع والأبراج وتحصين المدن والثغور[4] في مصر، لم يكن أقل من اهتمامهِ بذلك الأمر في بلاد الشام، فأكثر من

1- ابن كثير: البداية والنهاية، ج16، ص519؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج3، ص17؛ العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص46؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص141.

2- آيلة: في طريق مكة وهي أول حد الحجاز، وهي مدينة جبلية على ساحل البحر المتوسط، وبها يجتمع حجاج مصر والمغرب، وبها التجارة الكثيرة وأهلها أخلاط من الناس. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص70.

3- ماجد (عبد المنعم): صلاح الدين الأيوبي، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، 1987م، ص105.

4- الثغور: هي المدن الواقعة على الأطراف الإسلامية في آسيا الصغرى وأرمينية حيث استقر المرابطون للجهاد، وفيها عاش كثير من الصوفية والعلماء لجهاد الروم، فقدت هذه الثغور كثير من أهميتها بعد أن سقطت أسيا الصغرى بيد السلاجقة. وهي كل موقع قريب من العدو سمي ثغراً، والثغرة هي الفرجة في الحائط. أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج1، ق1، ص49؛ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ج2، ق2، ص353.

بناء الحصون في المواقع الاستراتيجية في تلك البلاد، وحرص على تحصين القلاع لتكون مراكز لعملياته الحربية الكبرى ضد الصليبيين.

الخاتمة

لقد شهد (القرن الخامس الهجري / القرن الحادي عشر الميلادي)، أحداثاً دامية في العالم الإسلامي على شقيه في المشرق العربي الإسلامي والمغرب العربي الإسلامي، ففي المشرق العربي الإسلامي عانى من الحروب الفرنجية والتي امتدت لأكثر من مئتي عام.

كذلك في المشرق العربي الإسلامي أدت حروب الفرنجة وسيطرتهم على بيت المقدس والشريط الساحلي لبلاد الشام، إلى قيام دولة الأتابكة ورفعها راية الجهاد التي حملها عماد الدين زنكي ومن بعده ابنه نور الدين محمود، الذي تم في عهده توحيد دمشق مع حلب والقضاء على الخلافة الفاطمية في مصر، إلا أن وفاة نور الدين وصغر عمر ابنه، فتح المجال أمام صلاح الدين الأيوبي للقضاء على الدولة الزنكية، وتأسيس الدولة الأيوبية فكانت دولة مترامية الأطراف ضمت مصر وبلاد الشام وأعالي الجزيرة والموصل والحجاز واليمن حتى حدود المغرب العربي الإسلامي، لتحمل على عاتقها مسؤولية الدفاع عن البلاد أمام الخطر الصليبي فكانت بداية النهاية للوجود الصليبي في المشرق العربي الإسلامي.

نتائج البحث:

1_ لقد أدت البيئة التي ولدَ بها صلاح الدين وتربيتهِ دوراً هاماً في سلوكهِ.

2_ كان صلاح الدين مطيعاً لسيدهِ نور الدين محمود على الرغم من الجفوة التي حصلت في نهاية حياة سيدهِ نور الدين محمود.

3_ يعد صلاح الدين من أعظم الشخصيات السياسية والعسكرية في تلك المرحلة فقد إستطاع من تأسيس دولة قوية بعد توحيد مصر والشام وحلب في جبهة واحدة.

قائمة المصادر والمراجع

1_ قائمة المصادر العربية:

4- ابن أيبك الدواداري (أبو بكر بن عبد الله، ت 736هـ / 1336م): كنز الدرر وجامع الغرر _الدر المطلوب في أخبار بني أيوب_، تح: سعيد عاشور، 8 جزء، القاهرة، المعهد الألماني للآثار الإسلامية، 1972م.

5- ابن تغرى بردى (جمال الدين أبي المحاسن يوسف، ت 874هـ / 1469م): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تح: محمد حسين شمس الدين، 16 جزء، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1992م.

6- ابن الأثير (علي بن أحمد، ت 630هـ / 1233م): التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تح: عبد القادر طليمات، القاهرة، دار الكتب الحديثة، 1963م.

7- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، تح: أبو الفداء عبد الله القاضي، مراجعة: مجمد يوسف الدقاق، 11 مجلد، بيروت، دار الكتب العلمية، ط4، 2003م.

8- الحموي (ياقوت بن عبد الله، ت 626هـ / 1229م): معجم البلدان، 5 أجزاء، بيروت، دار صادر، 1977م.

9- الحميري (محمد بن عبد الله بن عبد المنعم، ت 900هـ / 1495م): الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، بيروت، مكتبة لبنان، ط2، 1984م.

10- ابن خلكان (أحمد بن محمد، ت 681هـ / 1282م): وفيات الأعيان وأنباء ابناء الزمان، تح: احسان عباس، 8 أجزاء، بيروت، دار صادر، 1968م.

11- ابن شداد (بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع، ت 632هـ / 1235م): النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، تح: جمال الدين الشيال، القاهرة، مطبعة الخانجى، ط4، 1996م.

12- ابن شداد (عز الدين محمود علي بن إبراهيم، ت 684هـ / 1285م): الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تح: يحيى زكريا عبارة، 3 أجزاء، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، 1991م.

13- أبو شامة (عبد الحمن بن إسماعيل، ت 665هـ / 1267م): الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تح: محمد حلمى محمد أحمد، مر: محمد مصطفى زيادة، 2 جزء، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، ط2، 1998م.

14- أبو الفدا (إسماعيل بن علي، ت 732هـ / 1332م): التبر المسبوك في تواريخ الملوك، تح: محمد زينهم محمد عزب، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، 1995م.

15- ابن كثير (إسماعيل بن عمر، ت 774هـ / 1372م): البداية والنهاية، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، القاهرة، 21 جزء، دار هجر، ط1، 1998م.

16- المقريزي (أحمد بن علي، ت 845هـ / 1441م): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط الآثار المعروف بالخطط المقريزية، تح: محمد زينهم، مديحة الشرقاوي، 3 جزء، القاهرة، مكتبة مدبولي، ط1، 1998م.

17- المنصوري (بيبرس بن عبد الله، ت 725هـ / 1325م): مختار الأخبار تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة 702هـ، تح: عبد الحميد صالح، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ط1، 1993م.

2_ قائمة المراجع العربية:

1- الباقوري (عبد العال): صفحات من تاريخ الحروب الصليبية _حطين طريق الانتصار_، المينا مصر، دار الهدى، ط1، 1998م.

2- بيومي (علي): قيام الدولة الأيوبية، القاهرة، دائرة المعارف الإسلامية، 1952م.

3- الحويري (محمود): بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين، القاهرة، دار المعارف، ط1، 1992م.

4- عاشور (سعيد): الناصر صلاح الدين، القاهرة، المؤسسة العامة المصرية للتأليف والنشر، 1965م.

5- عاشور (سعيد): الحركة الصليبية ،2 جزء، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط4، 1986م.

6- عاشور (سعيد): الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، القاهرة، دار النهضة العربية، 1996م.

7- العبادي (أحمد مختار): تاريخ الأيوبيين والمماليك، بيروت، دار النهضة العربية، 1995م.

8- العريني (السيد الباز): مصر في عصر الأيوبيين، القاهرة، مطبعة الكيلاني الصغير، 1960م.

9- عنان (محمد عبد الله): تراجم إسلامية شرقية وأندلسية، القاهرة، مكتبة الخانجى، ط2، 1970م.

10- قلعجي (قدري): صلاح الدين الأيوبي، بيروت، شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، ط1، 1992م.

11- ماجد (عبد المنعم): صلاح الدين الأيوبي، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، 1987م.

12- المومني (سعد محمود): القلاع الإسلامية في الأردن، عمان، دار البشير، ط2، 2008م.

3_ قائمة المراجع المعربة:

1- **سيمينوفا (ليديا): صلاح الدين والمماليك في مصر، تر: حسن بيومي، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، 1998م.**

2- **ليونز (ملكوم كامرون) جاكسون (و. د. أ. ب): صلاح الدين، تر: علي ماضي، تح: نقولا زيادة، فهمي سعد، بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع، 1988م.**

3- **هاملتون (السير. آ. رجب): صلاح الدين الأيوبي، تر: يوسف ايبش، بيروت، بيسان للنشر والاعلام، ط2، 1996م.**